شرح قصيدة مديح الظل العالي

إنَّ قصيدة مديح الظل العالي تعدُّ من أشهر قصائد الشاعر الفلسطيني محمود درويش، فقد نظمها في ثمانينيات القرن العشرين إبان اجتياح إسرائيل لدولة لبنان، ولذلك يقول في مطلعها: بحرٌ لأيلولَ الجديدِ. خريفُنا يدنو من الأبوابِ، وقد نظم الشاعر هذه القصيدة على تفعيلة البحر الكامل وهي"متفاعلن"، وكان لها العديد من القوافي التي تمنح القصيدة ألوانًا بلاغية وموسيقية بديعة، وفيما يأتي سوف يتم إدراج شَرح مقاطع القَصيدة بشكل واضح:

بحرٌ لأيلولَ الجديدِ. خريفُنا يدنو من الأبوابِ...
بحرٌ للنشيدِ المرّ. هيَّأنا لبيروتَ القصيدةَ كُلَّها.
بحرٌ لمنتصفِ النهارِ
بحرٌ لراياتِ الحمامِ, لظلِّنا ' لسلاحنا الفرديّ
بحرٌ ' للزمانِ المستعارِ
ليديكَ, كمْ من موجةٍ سرقتْ يديكَ
من الإشارةِ وانتظاري

يبدأ الشاعر محمود درويش قصيدته التي كتبها كمرثية لبيروت وللعالم العربي في ذلك الوقت بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت خلال ذروة الحرب الأهلية التي خاضتها، فيقول: بحر لشهر أيلول الجديد القادم عبر الضباب، والذي يشير إلى اقتراب الخريف منَّا، وقد يكون هذا إشارة إلى معاناة ومأساة جماعية أخرى يعيشها الشعب الفلسطيني خصوصًا والعربي عمومًا، وأمَّا كلمة بحر التي يبدأها قد تشير إلى الغضب المستعر داخل صدر الشاعر وحجم الكارثة العظيمة التي حلت كتحية غامضة مثل معظم إشارات الشاعر الرمزية في القصيدة، ثمَّ يحَيّي الشاعر رايات الحرية والحب والظل الذي يمثل حالة الهدوء أو الخيبة للعرب، ويحيي السلاح الفردي الوحيد المتبقي بيد الفلسطيني، ثم يحيي البطل المتمثل بالآخر، وهو كل إنسان فلسطيني أو عربي يدافع عن وطنه وأرضه.

قُلنا لبيروت القصيدةَ كُلَّها , قلنا لمنتصفِ النهارِ:
بيروت قلعتنا
بيروت دمعتُنا
ومفتاحٌ لهذا البحر . كُنَّا نقطة التكوينِ ,
كنا وردةَ السور الطويل وما تبقَّى من جدارِ
ماذا تبقَّى منكَ غيرُ قصيدةِ الروحِ المحلِّقِ في الدخان قيامةً
وقيامةٌ بعد القيامةِ؟ خُذْ ثَأرِي
وانتصرْ في ما يُمَزِّق قلبكَ العاري
ويجعلكَ انتشاراً للبذارِ

لقد قرأنا لمدينة بيروت الحبيبة القصيدة كلها، وأخبرناها عن همومنا ومواجعنا وآمالنا، وقلنا لأوج الحياة الهادئة التي نعيشها أنَ بيروت هي قلعة صمودنا وهي التي علقنا آمالنا على أسوارها لتحمينا، وهي أيضًا غصتنا التي لن تنتهي بسبب ما تتعرض له من حروب وصراعات، وبيروت مفتاح للحرية والحياة، وهي سر من أسرار الكون، ونحن الشعوب التي انطلقت من عندنا الحياة وكنا بدء التكوين، وشبه جمال هذا الشعب بوردة على سور طويل، أو على ما تبقى من جدار، ولكن الآن ماذا تبقى منك أيها الشعب الفلسطيني غير معاناة ومآسي تعيشها لتنبعث روحك منها ثورة وقيامة جديدة لحياة جديدة، فانتفض أيها العربي وأيها الفسطيني واصنع ثورة تمزق قلبك من شدة الغضب وتنشرك فوق الأرض بذارًا لتنبت من جديد.

والبحر صورتُنا
فلا تذهبْ تماما
هي هجرةٌ أخرى، فلا تذهبْ تماما
في ما تفتَّحَ من ربيعِ الأرضِ، في ما فجَّر الطيرانُ فينا
من ينابيعٍ، ولا تذهبْ تماما
في شظايانا لتبحث عن نبيّ فيكَ نائما

ثم ينتقل الشاعر إلى نظرة متفائلة أكثر، فيقول: إنَّ البحر بما يمثله من أمل وعظمة وانفتاح هو صورتنا التي نطمح أن نكون عليها، فلا تذهب بعيدًا أيها العربي ولا تعتقد أنك انتهيت تماماً فالأمل الكبير ما يزال موجودًا، والهجرة التي هاجرتها مجرد هجرة أخرى لا تختلف عن الهجرات السابقة فلا تدخل الغياب لأنَّ قيامتك لن تكون بعيدة، فالربيع الذي سوف يعقب هذه الفترة سوف يزهر فينا، والحرية سوف تتفجر من صدورنا، فلا تذهب بل ابحث في ما تبقى منا عن بطل قومي جديد يعيد لنا الآمال ويسعى بنا إلى تحقيقها.

كمْ كُنْتَ وحدك يا ابن أُمِّي
يا ابنَ أكثر من أبٍ
كم كُنْتَ وحدكْ
القمحُ مُرٌّ في حقول الآخرينْ
والماءُ مالحْ
والغيم فولاذٌ وهذا النجمُ جارحْ
وعليك أن تحيا وأن تحيا

وأن تعطي مقابلَ حبَّةِ الزيتون جِلْدَكْ
كَمْ كُنْتَ وحدكْ

ثم يتوجع الشاعر على أحوال الشعب الفلسطيني الذي بقي وحيدًا، فيقول: كم أنت وحيد أيها الفلسطيني يا ابن أمي وابن هذه الحكومات العربية التي تدعي مناصرتنا ودعمنا ولكنها في النهاية كانت كلها تبيعنا الوهم ولا تصدُق في وعودها، حيث شبه الشاعر فلسطين بأنها أمه وأم كل الفلسطينيين، وفي إشارة إلى الغربة ومواجعها يقول لقد أصبح طعم القمح مالحًا في حقول الغرباء، وطعم الماء مالح، لأنَّ الإنسان لا يجد شيئًا طيبًا ولذيذًا إلا في بلاده، حتى الغيوم في السماء صارت سقفًا من الفولاذ فوقنا، والنجوم مثل الأسلحة الجارحة، ولكن عليك أيها الإنسان أن تحيا وأن تدفع أغلى ما تملك من أجل الشيء اليسير ولقمة العيش.

حاصِرْ حصَارَكَ... لا مفرُّ
سقَطتْ ذراعك فالتقطها
واضرب عَدُوَّك ... لا مفرُّ
وسقطتْ قربك، فالتقطني
واضرب عدوكَ بي .. فأنت الآن حُرُّ
حُرٌّ
وحُرُّ

بعد ذلك يدعو الشاعر الإنسان الفلسطيني للثورة الكبرى التي يهدم فيها الأسوار المحيطة به، فيقول: انتفض أيها الشعب الفلسطيني بكل قوتك ولا تتواني ولا تضعف أمام ما يفعله بك المعتدون، اقلب هذا الحصار على من يحاصرك وحاصره أنت بإرادتك وعزيمتك وما فيك من شجاعة، وحتى لو سقطت ذراعك التقطها مرة أخرى بمعنى إذا خسرت جولةً فابتعد عن التردد واضرب عدوك فليس هنالك من خيارات أخرى أمامك، وعندما أسقط قربك أيضًا اجعل مني دافعًا للمضي قدمًا والتقطني مثل قذيفة واضرب بي الأعداء، لنكون حطبًا نوقد نار الثورة التي تتوج بالحرية، ولا تتراجع فأنت حر بكل معنى الكلمة إلى الأبد.

سقط القناعُ عن القناعِ عن القناعِ
سقط القناعُ
ولا أحدْ
إلاَّك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيانِ,
فاجعل كُلَّ متراسٍ بَلَدْ
لا .. لا أَحَدْ
سقط القناعُ
عَرَبٌ أطاعوا رُومَهم
عَرَبٌ وبارعوا رُوْحَهُم
عَرَبٌ.. وضاعوا
سَقَطَ القناعُ

في هذا المقطع يشير الشاعر إلى انكشاف الحكومات العربية وتعرّيها أمام الأحداث الفلسطينية، فيقول: لقد سقطت جميع الأقنعة وانكشف الخداع الذي كانت الحكومات العربية تدعيه أمام شعوبها، ورغم ذلك ما تزال أيها الشعب الفلسطيني وحيدًا في هذه الاحتمالات التي تقودك إلى الضياع والموت أمام الأعداء، ولكن لا تتراجع بل اجعل كل متراس أمامك بلدًا كاملًا تلجأ إليه وتعيش فيه، فقد خضع العرب لأعدائهم الروم وباعوا أرواحهم وضاعوا في النسيان.

الصور الفنية في قصيدة مديح الظل العالي

تضمُّ القصيدة عددًا كبيرًا من الصور البلاغية والفنية المميزة والتي تبثُّ في القصيدة إيقاعات موسيقية رائعة وتضفي على المعاني لمسات جمالية وزخرفة بديعة، ويسعى من خلالها الشاعر إلى إيصال المعاني إلى القراء بطرق غير مباشرة ومحببة إلى القراء، وفيما يأتي سوف يتم إدراج أهم الصور الفنية والبلاغية في القصيدة:

- **أسلوب الطباق**: ورد أسلوب الطباق في القصيدة أكثر من مرة كما في قول الشاعر: كمْ كُنْتَ وحدك يا ابن أُمِّي يا ابنَ أكثر من أبٍ، حيث جاءت كلمة وحدك وكلمة أكثر متعاكستان رغم عدم كونهما من نفس الاشتقاق.
- **أسلوب الكناية**: ورد أسلوب الكناية في قول الشاعر: بحرٌ لأيلولَ الجديدِ. خريفُنا يدنو من الأبواب، كنى الشاعر بهذه الجملة عن قدوم مرحلة مظلمة وصعبة على الشعب العربي والفلسطيني في ذلك الوقت متمثلة بالحرب والاجتياح الإسرائيلي لبيروت.
- **أسلوب الجناس**: استخدم الشاعر أسلوب الجناس أكثر من مرة في القصيدة مثل قوله: بيروت قلعتنا بيروت دمعتُنا، حيث جاء في كلمة قلعتنا ودمعتنا جناس ناقص.
- **استعارة مكنية**: وردت الاستعارة المكنية كثيرًا في القصيدة كما في قول الشاعر: قُلنا لبيروت القصيدةَ كُلَّها , قلنا لمنتصفِ النهارِ، حيث شبه بيروت بشخص يسمع وشبه منتصف النهار بشخص يسمع أيضًا، ولكنه أبقى على المشبه في كلا الاستعارتين وهما بيروت ومنتصف النهار، وحذف المشبه به وهو شخص أو إنسان وذكر مكانه واحدة من صفاته دلت عليها كلمة "قلنا".

معاني المفردات الصعبة في قصيدة مديح الظل العالي

هنالك كثير من الكلمات في قصائد الشعراء قديمًا وحديثًا تكون عادة غير مستخدمة في حياة الناس ولذلك من الصعب التعرف على معانيها الدقيقة من دون اللجوء إلى المعاجم، وقد يكون هذا بسبب الفوارق الكبيرة بين اللهجات العامية العربية وبين اللغة العربية الفصحى، واختلاف اللغة المستخدمة في الشعر والتي تكون أصعب عادة كونها تعتمد على اللغة الفصيحة، وفيما يأتي سوف يتم إدراج شرح أهم المفردات الصعبة في القصيدة:

المفردة	شرح المفردة
هيأنا	جهزنا ورتبنا
المحلق	الذي يطير عاليًا في السماء
نثاري	أجزائي وفتاتي
المستعار	المزيف، غير أصلي وغير حقيقي
شظايانا	أشلاؤنا وبقايانا الممزقة
متراس	ما يوضع أمام الشخص من تراب وغيرها من مواد كحاجز
مفر	مخرج ومهرب
إلاك	غيرك